

قراءة في سيميائيات الصورة

الصورة المفخخة

الصورة:



٢

١

ما زال صانع الصورة حتى اللحظة يتابع الدرس الجمالي عن الصورة الذي قرأه بعضنا في مدارس الفنون. لكن لنلاحظ أن طبيعة الفضاء (الحيز الفارغ) القائم أمام المتحاورين محكوم دائما بالشخصية التي تتحاور أمامه وبوضعه الفيزيقي على الطاولة: الشخصية رقم ٣ تمتلك صورته إزاحة إلى يمين الصورة لأنه يحاور شخصا افتراضيا يقع إلى يمينه، والشخصية رقم ١ تمتلك صورته إزاحة إلى اليسار لأنه يحاور الشخصية رقم ٣، لذا إذن لدينا في صورة المقدم العادل (رقم ٢) إزاحة إلى اليسار أيضا؟



٣

إن الشخصية ٢ (المقدم) في مواجهة دائمة للشخصية ٣ مختلف حلقات البرنامج ومنذ سنوات طوال. هذه النقطة جوهرية. إنه ليس بشاهد عدل. إنه طرف فاعل منحاز. الشخصيتان رقم ١ ورقم ٢ (وهما أحد ضيوف البرنامج ومقدمه) يتواجهان مع الشخصية رقم ٣ بشكل نسقي دائم منذ سنوات في برنامج (الاتجاه العاكس). لماذا؟ لأنهما في الغالب متفقان، ضمنا أو علنا، ضد طروحات الشخصية الثالثة.



٢

إن مبدأ الإزاحة الجمالي يقع استخدامه إذن بطريقة مقصودة إذ لم نقل أيديولوجية، لسا في حضرة مدعويين اثنين ومقدم، بل في مقام طرفين ضد طرف ثالث. الشاهد العدل رقم ٢ ليس عادلا: إنه متواطئ مع من هو على يمينه متحالفا معه ضد الشخصية رقم ٣ وإن بتلاعبات لفظية ماهرة. إن مراقبة طويلة للقاسم في برنامجه ستدلّ العقلّ الصاحي أن الهدف من تقديم إزاحة لصورته عن مركزها تبقى، لا شعوريا، إلى مخاطب افتراضي على الأقل في الحيز اللعنت من الإطار (المخاطب هو دائما هي الحقيقة الشخصية رقم ٣). إنه ضد هذه الشخصية بإصرار وعمد. لنر هذه القطات من البرنامج نفسه في اليوم نفسه:



المقدم، القاسم، يحاور ويناهض الشخصية التي نفترض

تصوير الفوضى الأميركية المدبرة للمنطقة العربية بأنها صبت في صالح انصار المشروع الوطني المستقل؟ اليبس ما يجري في العراق وفلسطين ولبنان مجرد صراع دموي على السلطة؟ ليست معركة بين معسكري التشدد والاعتدال ... ألم تتخل بعض حركات المقاومة عن الجهاد بمجرد وصولها إلى السلطة؟

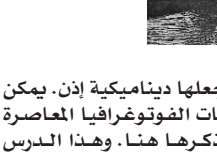
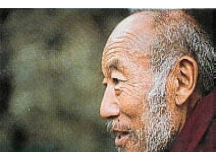
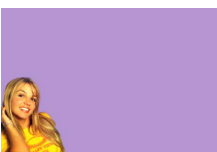
فيصل القاسم يههد لبرنامجهم بقول الفكرة وقول ما يعارضها بالحما والحبج الحاسمة المتناقضة وباليقين النهائي ذاته لهذا وذاك، حتى كان مهمته هي قول الحقيقة المطلقة ونقيضها المطلق، ليظهر والحالة هذه رجلا من دون موقف محدد من القضايا الكبرى التي يطرحها. في الوقت الذي يزعم فيه أنه يقدم فكتي الميزان أثناء برنامج (الاتجاه العاكس) مثل هذه الموضوعية ويرى أنه يمتلك موقفا محمدا واضحا في الغالب لصالح كفة واحدة.

وعلى أي حال فإن الاستنتاج الممكن من هذا كله هو أن التكوين compositionالمهندس بصريا بين طرفين إنما يمشي بالتوازن مع الاعلانات الاستباقية الهندسة لغويا التي تمنح الحق لفكرتين معروضتين على قدر متساو. فلسفيا يبدو الأمر وكأنه قفز على جدل العالم العميق الذي يختلط به هذا وبذاك، ويبدو وكأنه حيرة أمام الجدل العميق الذي يقفز المقدم ويتعسف عليه بجرأة. لكي تكون النتيجة المنطقية الممكنة هي أنه إذا قفز المقدم على جدل العالم لغويا كما يفعل فإن التكوين البصري يصير ضربا من الاحتيال المحض.

فرضيتنا الأخيرة تستلزم البرهان، ودائما من وجهه نظر السيميائيات البصرية.

مبدأ إزاحة موضوع الصورة عن مركزها

ما سبق هو وجه بصري واحد من وجود اشكاليات استخدام الصورة في البرنامج المذكور المأخوذ شاعدا. الوجه الآخر ان الصورة –البورتية للمدعويين الاثنين، كما تقدم البرنامج، لا تفض الشخصيّة في وسط الإطار تماما، متعابة في ذلك مبدأ جماليا غدا اليوم معروفا يقول أن انحرافها قليلا عن الوسط يمنحها، أي الصورة، ديناميكية أكبر وجمالية أعمق. إنه درس غدا مدرسيا في فن البورتريهات. درس سيستخدم في برنامج قناة الجزيرة ليس لغرض جمالي محض ولكن لغرض آخر أيديولوجي. لقد تعلمنا في مدارس الفنون الجميلة أن العلاقة (جمودية- ديناميكية) الصورة الثابتة خاصة -Statisme dynamisme de l'image fixe تتدخل بثلاثه إجراءات قد تجعل الصورة إما جامدة أو ديناميكية: (التأطير)، (اختيار الموضوع)، (سرعة التعريض للضوء واتجاه العدسة). تتوقف اللحظة أمام التأطير وحده: فعندما يكون الموضوع المصور في وسط الصورة الفوتوغرافية فإن للصورة طابعاً جمودياً، بينما يقوم إزاحتها عن المركز بجعلها ديناميكية. ومبدأ الإزاحة cartementنطبق على الصور المتحركة وإن بتعديلات أخرى. هنا ثلاثة أمثلة على ذلك: الطاحونة والرجل الآسيوي والغنية برنتي Britny Spirs:



إزاحة الصورة عن المركز تقوم بجعلها ديناميكية. إذن. يمكن الذهاب بذلك بعيدا في جماليات الفوتوغرافيا الماهرة وألغراض عديدة لا مجال لنذكرها هنا. وهذا الدرس البديهي هو ما يظهر بالضبط في تأطير البورتريهات في برنامج (الاتجاه العاكس) كما نرى أدناه في الصور القريبة للمقدم وضيفيه اللذين رأيناهم قبل قليل في صورة أجمالية وما هي الآن بورتريهات مأخوذة بلقطات بالمستوى المقرب plan rapproché لاهم مزارحون عن وسط

التصويرية التشكيلية بالذقة والانضباط ذاته. نحن هنا كأننا بالفعل أمام كفتي ميزان، يمثل كفته الأولى الضيف الأول يميناً، وكفته الثانية الضيف الثاني يساراً، بينما يتموضع مقدم البرنامج في الوسط الذهبي لإطار الصورة بوصفه شاهداً الميزان ووسطه المرهف، كما نرى في الصورتين التاليتين:



من اليمين إلى اليسار: فاضل الربيعي وفيصل القاسم وفوزي الأتروشي يوم ٢٩/٥/٢٠٠٧ على قناة الجزيرة في برنامج (الاتجاه العاكس). اللقطة العامة تقدم تكويناً compositionبصرياً مثالياً في توازن العناصر. والمدعون يشكلون مغزى رمزياً سياسياً وأيديولوجياً مثالياً في هذه الوقت بالذات.

إن توزيع العناصر أعلاه في الفضاء التصويري مثالي بل أولي. والتكوين البصري compositionيتقدم دلالياً بالتالي بوصفه مدينة فاضلة إفاطونية بالمعنى الفلسفي للكلمة، لأنه يخاطب أوهي درجات الوعي البصري لكي يمنحه الانطباع بالتعادل الفيزيقي التام، ونشدد على المفردة، بين كفتي الميزان يميناً ويساراً حيث يوجد الشاهد العدل وسطه تماماً. لكن التعادل البصري الذي هو مسألة نسبية تماماً، يمكن أن لا يقوم وفق مخطط متعادل هندسياً ومتوازن رياضياً مثل الذي نراه في مثالنا، ويبقى رغم ذلك متوازناً جداً ومتعادلاً للقافية من الناحية البصرية، ولدنياً أمثلة وأفره من تاريخ الفن وتاريخ الصورة لا مجال لها هنا. إن الانطباع المراد إيصاله على مستوى التكوين compositionوبالتوازن مع الكلام (النص) القول أثناء البرنامج يستهدف على ما يبدو مخاطبة الألا وهي أي الوعي الساهي. إنه يوحى بالتوازن البصري بوصفه قريباً مرئياً لعدالة نصية وسجالية وفكرية سوف تتبعه وتتابعه. إننا أمام أول درجات التفخيز لأن هذه العدالة المقترحة بين طرفين يساجلان فكراً والمقترحة ضمناً عبر التكوين الشكلي المرن، لم تظهر البتة طوال حلقات طوال من البرنامج حسب متابعتنا وتسجيلنا له منذ سنوات.

وإذن فإن التكوين البصري compositionالمحسوب هنا رياضياً ويشكل مقنع شكلياً، والذي يرمز إلى عدالة مثالية في معالجه الأطروحات الفكرية التي تحويها الكفتين ينطوي، بحد ذاته الآن، على قصدية محددة. نواياها إيجابية كما توحى الصورة التي سنمها مخرجو التكوين، بينما نراه مضخاً لأسباب تتعلق بطريقة عمله الماكرة، وبالتالي بمحتواه وهو ما سنقوله بعد قليل.

في الاعلانات الاستباقية التي يقدمها فيصل القاسم لبرنامجهم قبل أيام من بثه، ثمة تساو مماثل مرعب بين فكرتين متناقضتين بالتام سوف يجري السجال حولهما. تماثل يشابه حرفياً هذا التعادل بين كفتي الميزان البصري الموصوف.

لنأخذ، مختصراً، ما قاله القاسم في تمهيدده حلقة أخرى بثت يوم ٣ تموز ٢٠٠٧:

” هل حققت الفوضى الأميركية الخلاقة التي بشرت بها كوندوليزا رايس أهدافها في الشرق الأوسط أم انقلبت وبالأعلى الأميركيين أم يربسونها فوضى هلاكة هدامة لتسهيل سيطرتهم على المنطقة؟ ألم تحولها حركات المقاومة وقوى المعارضة إلى فوضى خلاقية فلا؟ اليبس ما يجري في فلسطين والعراق ولبنان انتفاضة عظيمة على المشروع الأميركي وادواهم المتمثلة بأبي وائل في لبنان وأبي إسراء في العراق وأبي مازن في فلسطين؟ ... هل يريدون أن يعيدوا لبنان وفلسطين إلى العصر الحجري كما فعل عملاء الاحتلال في العراق؟... لكن في المقابل اليبس من الخطأ

شاكر عبيدي

تصديق

طالما نستخدم مضرة التفخيز للتعبير عن مكر ما في إيقاع الأذى العنيف بالوعي أو الجسد الإنساني، فهل ثمة من ضير في استجلاب المفردة إلى حقل الصورة طالما أن هذه الأخيرة قد توقع الأذنين كليهما، خاصة في حقول الميديا التي تستخدم الصورة، بمكر وبراعة، كوسيلة وأداة أيديولوجية أو دعائية (بالمفهوم الضيق وليس الجمالي للآدوات) أو حتى حرية بالحدود الضيقة للكلمة؟ هل تصلح أمثلة التفخيز الصريح للصورة، كلما تعلق الأمر بعدو حقيقي أو افتراضي، في البلدان العربية التي تقع فيها الحروب وتستخدم فيها الخدع بأشكالها كلها من أجل نصر ما، مثل لبنان والعراق وفلسطين والجزائر والصومال، كما تستخدم فيها جميع أنواع المضخات الحقيقية والرمزية، وفعلهما الاثنان ذو نتيجة قاسية واحدة؟ وكيف يتجلى فعلياً تفخيز الصورة المزعوم هذا؟ عندما نتكلم عن تفخيز فإننا نتحدث، بداهة، عن قناع وحجب وتوحيه تبدو كلها للوهلة الأولى من البراءة يمكن. لا يمكن للخديعة سوى أن تتقدم وكأنها الحقيقة والطهارة الصافية، وكأنها تجاري المفهومات والمظاهر العامة المقبولة التي صارت مشتركة في الوعي السائد. السيارة، كالمصورة على صعيد آخر، ليست سوى وسيلة نقل محايدة ذات تصميم جمالية، تقع تزوير وانفخها وجمالياتها وشحنها بما هو ليس من طبيعة وظيقتها الأصلية وتصميمها الخارجي المرن: الديناميت، الصورة في السياق الراهن تبدو مشحونة بما هو ليس من طابعها الداخلية رغم أنها تتقدم بمعارف وجماليات عالية. إنها تصوير ملغومة والحالة هذه.

السيارات المفخخة في مقاربة الصور المفخخة هما تعبيران عن مكر وأذى، واقع مرة على الوعي المحض الذي هو من طينة ساجلية أو ميتافيزيقية، ومرة أخرى على الجسد المصلصالي الذي هو من طبيعة هشة لا يجوز إلا إلى الأرباب جرحها أو إفناؤها.

هذه البدايات ستوضع في موقف الرية، عندما نتحدث تصميمات فوئوغرافية أو لتفزيونية باهرة موظفة لصالح شأن من طبيعة لا تليق بالمعالجات الجمالية من قريب أو بعيد. وبالطبع لا نتحدث عن صورة ذات وظيفة دعائية مباشرة فهذه مضخوة للجميع وتبعت على السخريّة. نتحدث بالآخرى عن الاستخدامات، المقصودة المتكررة في آن، لمصورين وفصائليات اتحرافية تنطلق من الجميل في عالم الصورة والنهجي المهرج في تعاطيها، لكن المهرجين وبالتالي المفخزين بالمعنى غير المريح لكلمة تفخيز. سنأخذ مثلاً واحداً عن هذه العلاقة المتنبسة بين المعرفة الجمالية المنهجية للصورة في استخدامها بطريقة مأكرة، شعورياً في الغالب، ولا شعورياً أيضاً. وللنقطة الأخيرة

سأعود في ثانياً عرضي. البرنامج التلفزيوني (الاتجاه العاكس) المقدمه د. فيصل القاسم يقدم مثالا نموذجياً لصورة مفخخة مأكرة بالمعنى المذكورين. مفخخة عبر النص اللغوي والصورة غير اللغوية، الترابطين بطبيعة الحال. سنتوقف عند الصورة الآن.

مبدأ التوازن في التكوين البصري compositionالمبدأ الجمالي الأساسي المعروف عن التكوين -composi- للصورة متوازنة يقع في تناسق عناصرها في فضاء مربع أو مستطيل العمل التشكيلي: اللوحة، أو إطار الصورة التلفزيونية، سيان. نحن أمام عناصر موضوعة في حيز فضائي محدد عليها، أي العناصر أن لا تعلق طغيان عنصر واحد منها أو أكثر على جانب من جوانب الإطار أي في فضاء العمل. فإن أي إفراط في وضع مزيد من الكتل على أحد جوانب الإطار (أي الحيز الفضائي للعمل) سيجعل العين البشرية تقع، شعورياً ولا شعورياً، على اختلال فاضح، كما لو أننا أمام كفتي ميزان عليهما، في الحالات المتأكدة، إن يتوازنا بالتام.

لللغة العامة أو الكلية Le plan général ou plan d'ensembleلستوديو (الاتجاه العاكس) تتابع توازناً مثالياً كاملاً قد لا تقع على ما يشابهه في الأعمال

الفنانات البستكية كيلي ستيوارت كاوش:

المعالجة والتقنيات التي أمارسها على سطح القماش هي ما يهمني في عملية الرسم

حسين أحمد والثاني بالهولندية وساهم فيه (٢٣) شاعرا هولنديا كتبوا قصائد (خاصة عن لوحاتي، وقد جمع هذا الكتاب وأعد الشاعر موفق السواد. وأعيش الآن متفرغا للرسم.

في أين تضع تجربة الفن التشكيلي العراقي في إطار المشهد العربي والعالم؟

في لدينا في العراق فنانون ومبدعون كبار والحركة التشكيلية العراقية مهمة ومؤثرة، لكن بحدود المنطقة التي تعيش فيها، فمن الصعب أن تخترق العالم فنيائنا حتى لو كانوا كبارا، فالمسألة معقدة وتحتاج إلى الكثير من العوامل مثل عملية التقنيات والتسويق، التعاون الثقافي مع المتاحف والمؤسسات الفنية في العالم، كذلك اقتصاد البلد ونضحيته الفنان بكل شيء أحيانا لكي يحقق نجاحاته. على الرغم من وجود فنانين كبار لدينا مثل محمد مهدي الدين ورافع الناصري وضياء العزاوي وغير طالب... و غيره.

في ما هي آخر مشاريعك؟

لدي معرض شخصي كبير في الجايري (فن في المقدمة) في مدينة خرونجن شمال هولندا، وقد اختار مسؤول الجايري سبعين (٧٠) لوحة من أعمالي التي رسمتها في السبع سنوات الأخيرة

أثناء وجودي في هولندا وسيتم فتح المعرض يوم ١٠ حزيران المقبل، بعد ذلك بشهرين لدي معرض مشترك مع اثنين من الرسامين الهولنديين في مدينة (دي مارنه) قرب بحر الشمال. كما أنتظر صدور كتاب فني مع مجموعة من الفنانين

اللوحة كذبة بصرية ولكي اكون فنانا ناجحا على ان اجعل الآخرين يصدقون كذباتي البصرية؟!

في هولندا هذا البلد الصغير مناخ فني صحيح ففيه (٩٠٣) متاحف وهذا شيء اقرب للخيال..!

لدينا في العراق فنانون ومبدعون كبار والحركة التشكيلية العراقية مهمة ومؤثرة لكن بحدود المنطقة التي تعيش فيها

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في الغربة تأخذ منك الكثير، كما تعطيك الكثير، والمسألة لها علاقة بمهارات الشخص الفردية واستعداداته للتواصل مع الآخر، عمق موهبته وتضحيته من أجل مشروعه الفني. في بلد مثل هولندا تاريخ طويل من الرسم يمتد لقرون طويلة، وهناك علامات ذهبية أثرت في تاريخ الفن بشكل عظيم مثل ريمبرانت وفرمير وفان خوخ وموندريان وجماعة كوبيرا وصولا إلى فناني اليوم. ومن

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟

في لا شك ان آفاق تجربتك الأبدائية اتسعت في عالم الغربة والهجرة خارج الوطن وفي عدة محطات.. ما الذي وفرته لك الغربة من مزاي وفوائد؟